تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٩ —

٣ً — الرافعي :

وللأديب مصطفى صادق الرافعي كتاب مطوّل في الإعجاز اسمه « إعجاز القرآن » عرض فيه لشتى المذاهب التي قيلت فيه ونقدها كما عرض فيه عدة مسائل تتعلق بهذا البحث وأبدى رأيه فيها وهو يعالج الموضوع بروح المسلم المتحمس للإسلام الثائر على من يعانده ولهذا يصم من يخالف عقيدة المؤمن الصادق بألفاظ تحطّ منه ، ويميل الى نصرة كل رأي يناصر الاسلام ولو كان بعيداً عن الروح العلمية الصحيحة ، ويقدم أخيراً رأيه الخاص في الإعجاز . وتتلخص الأفكار التي وردت في كتابه بما يلي :

١ً — يعرّف الرافعي معنى الإعجاز فيقول : إنه ضعف الإنسان عن مزاولة المعجز واستمرار هذا الضعف مع الزمن .

٢ً — يعرض لأول من طعن في الإسلام وهو لبيد بن الأعصم ومن خلفه ممن ذكرتهم سابقاً ولفتنة خلق القرآن وظهور طبقة المعتزلة وتأثرها بالفلسفة ومزجها بين هذه وبين الدين .

٣ً — يعرض لفكرة الصرفة وبعض الذين قالوا بها كالنظام والمرتضى وابن حزم والجاحظ ويرفضها .

٤ً — يتعرض لمذاهب مختلفة ، كالقول بإعجاز القرآن من ناحية النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مقاطعه وفواصله ومطالعه ، وكالقول بأنه في سلامة الألفاظ مما يشين اللفظ ، والقول بأنه في خلوّه من التناقض واشتماله على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المعاني الدقيقة ، والقول بأنه في اجتماع هذه الأمور كلها وهو يرفض هذه الآراء جميعها متهكماً .

٥ً — يذكر مذهب عبد القاهر في الإعجاز وأنه ليس السابق اليه بل تقدمه فيه الواسطي والرماني .

٦ً — ثم يذكر مذهباً آخر يقول إنه لطائفة من المتأخرين وهو في الحقيقة مذهب يحيى بن حمزة اليمني صاحب « الطراز » وأضرابه وهو القائل بأن الإعجاز في فصاحة الألفاظ وبلاغة المعاني وحسن النظم .

٧ً — ثم يذكر أن بعض الطاعنين على القرآن قد ذكروا سفاسف تكلف بعض العلماء الرد عليها مع أنها لا تحتاج الى ردّ لسخفها ويضرب عليها أمثلة ويقول بعد ذلك إن إنكار الإعجاز لم يقل به أحد من المتأخرين .

٨ً — يذكر جماعة ممن ينكرون الإعجاز كعيسى بن صبيح المزدار وأصحابه والحسينية .

٩ً — يذكر تأليف الجاحظ « كتاب نظم القرآن » ويذكر نقد الباقلاّني له وقد سبق هذا النقد ثم يذكر بعض الكتب التي أُلفت في الإعجاز ككتاب الواسطي الذي يعدّه أول هذه الكتب وكتاب الرمّاني وكتاب الباقلاّني ويقول فيه إن المتأخرين أجمعوا على أنه باب في الإعجاز على حدة ثم ينقد كتاب الباقلاّني بما نقد به هذا كتاب الجاحظ (ص ١٥٢ من إعجاز القرآن للرافعي) وبأنه جمع فيه بين جنس وجنس من القول وحشر اليه أنظمة من كل قبيل من النظم والنثر واستراح الى النقل . ولا ينكر قيمة الكتاب من حيث وفاؤه بكثير مما قصد اليه من أمهات المسائل ويقول إن الباقلاني ما زاد على أن ضمن الكتاب روح عصره وأنه أقنع معاصريه في كتابه بما يتعلق بذوقهم إذ ذاك ولكنه لا يكفي لبيان إعجاز القرآن في كل جيل ثم يذكر الرافعي بعد ذلك أن ممن ألفوا في الإعجاز على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما اليها الإمام الخطابي والرازي (فخر الدين)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وابن أبي الإصبع والزملكاني ويقول إنها كتب أخذ بعضها من بعض ثم يذكر كتاب ابن سراقة ويعده من أعجب الكتب التي سمع بها .

١٠ً — ويتكلم بعد ذلك على التدرُّج في آيات التحدي وأنه كان بالأكثر فالأقل وجواب المشركين على هذا التحدي بوصف القرآن والرسول بعدة صفات ذكرها القرآن نفسه ثم يورد قول الجاحظ في كيفية تحدي القرآن للعرب وما دار في ذلك من جدل .

١١ً — وينتقل من هذا الى الكلام على المتنبئين والمخالفين الذين عارضوا القرآن ويذكر بعضاً من أخبارهم وأقوالهم وهم مسيلمة والأسود العنسي وطليحة ابن خويلد وسجاح بنت الحارث والنضر بن الحارث ويذكر ممن اتهموا بالمعارضة ابن المقفع وابن سينا وقابوس بن وشمكير وابن الراوندي والمتنبي والمعري ويدافع عن بعض هؤلاء المتهمين ويحمل على ابن الراوندي ويقف موقفاً حيادياً من آخرين وقد ذكرت ذلك عند الكلام على كل واحد منهم في ترتيبه الزمني .

١٢ً — يذكر عجز العرب عن مجاراة القرآن لأنهم كانوا يدركون في أنفسهم علو كعب القرآن عن متناولهم وذلك بقوة طبعهم وذوقهم الفني .

١٣ً — ويقدم بعد ذلك رأيه الخاص في سبب الإعجاز فيقول إن أسلوب الأديب نتيجة لمزاجه الخاص وإن إعجاز القرآن في أسلوبه راجع الى أنه ليس من مزاج البشر ولولا ذلك لأشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم الى هذا العهد ولهذا خلا من التناقض . ونلاحظ هنا أن الرافعي يجعل السبب مسبباً والعلة معلولاً فبدلاً من أن يسعى لإثبات أن القرآن من عند الله بإثبات أنه معجز نراه يثبت بأنه معجز لأنه من عند الله وذلك بأن يعلل بأنه انفرد عن أساليب العرب بأسلوبه الخاص لأنه ليس وضعاً إنسانياً البتة ولو أنه أثبت قبل ذلك أن أسلوب القرآن فوق طاقة البشر لكانت طريقته في البرهنة صحيحة لا غبار عليها . والقرآن في رأيه معجز أيضاً بهذا الضرب الخالص من الموسيقى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ونبرةً نبرة كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة ويذكر بهذه المناسبة أثر موسيقى القرآن في نفس عمر بن الخطاب حين أسلم وأثرها في نفس بعض المشركين وأن من عارضه كمسيلمة لاحظ هذا الجانب الموسيقي فقلده وطوى عما وراءه من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ثم يقول : «ولا يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي وهذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت» (ص ٢٢٢ إعجاز القرآن للرافعي) .

وخلاصة رأي الرافعي في هذا الموضوع أن القرآن معجز :

١ً — بهذه الموسيقى التي فيه .

٢ً — بهذه الروح المستشفة من نظم القرآن والتي تخاطب الروح وهي ليست ألفاظاً ذات معنى فقط بل هي حياة تضطرم وهي خلق روحي (فيه صوت النفس الطبيعي في تركيب اللغة العربية وصوت الفكر أو العقل وقد توفر للعرب ويمتاز القرآن بصوت ثالث هو صوت الحسّ في الألفاظ والمعاني الممثلة) .

٣ً — خلو القرآن من الألفاظ التي تكون كمتكأ وهذا المتكأ يشاهد في كلام البلغاء وهو يرى أن كلمات القرآن كلها ضرورية في تأدية المعاني التي يريدها .

٤ً — في اشتمال القرآن على مبادئ العلوم وعلى كثير من المخترعات والنظرات العلمية الحديثة وقد ذكرت رأيه في ذلك قبل قليل كما أورده الأستاذ الخولي وذلك حين الكلام على نظرية الاعجاز العلمي .

ويذكر الرافعي بمناسبة الإعجاز العلمي كلام ابن رشد في احتواء القرآن على طرق التعليم المنطقية وقد ذكرت ذلك أثناء الكلام على ابن رشد وبينت رأيي فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويذكر أخيراً اختلاف أعداء النبي في الصفة التي يجب أن ينعتوا بها القرآن إذا حضر العرب الموسم واتفاقهم آخر الأمر على وصفه بالسحر .

ويحسن الرافعي في أن يجعل سبب الإعجاز قائماً في الأسباب الثلاثة الأولى ولو أنها لا تكفي في بيان الإعجاز لأن كلام المخلوقين لا يخلو من هذه الصفات ، ولكن الرافعي يخطئ إذ يجعل من القرآن موسوعة دينية دنيوية لعلوم الأرض .

٤ — عبد العليم الهندي :

وننتقل من كتاب إعجاز القرآن للرافعي الى مقالة ضافية متعمقة في تطور فكرة الإعجاز لعبد العليم الهندي نشرها في مجلة الثقافة الإسلامية التي تصدر في الهند باللغة الانكليزية في العدد الأول والثاني من أعداد سنة ١٩٣٢ .
(The Islamic culture N° 1 and 2, 32 th year) .

يصف الباحث في هذه المقالة حالة العرب زمن النبي وبيانهم وأميتهم وعدم معرفتهم النثر الفني ويعلل ذلك ثم يصف مخالفة القرآن في أسلوبه لأساليب العرب حينئذ ويقول بأن القرآن تعبير عن التجربة الدينية في نفس محمد ثم يذكر آيات التحدي والتدرج في نزولها ويعلل عجزهم عن معارضة القرآن وكيف نتجت فكرة أن القرآن فوق الطاقة من هذا التحدي ثم يتكلم على الحوادث الاجتماعية والسياسية التي أدت الى تفكير المسلمين في القرآن ونشوء الأفكار الحرة والزندقة وبدء الكلام في الإعجاز .

ثم يتكلم على ظهور ثلاث طرق في مناقشة مسألة الإعجاز في هذا الزمن : طريقة التفسير وطريقة علم الكلام التي تقول بضرورة وجود فكرة المعجزة لإثبات النبوة وطريقة المعتزلة وعلى العوامل التي أدت الى وجود كل منها وعلى اتصال كل واحدة من هذه الثلاثة بالأخرى ثم على انبثاق طريقة رابعة من هذه الثلاث وهي طريقة علم البيان في الأدب ويقول بأن أولها ظهوراً طريقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المعتزلة ثم المتكلمين ثم المفسرين وأخيراً أرباب البلاغة ؛ ويذكر بعد ذلك المعتزلة الذين لهم رأي في الإعجاز واول من بحث هذه المسألة من المتكلمين وهو علي ابن ربن الطبري وأول من بحثها فيما علمنا من المفسرين وهو ابن جرير الطبري وبعده القمي وأشار الى اتصال التفسير بالكلام والفلسفة ثم تكلم على ظهور الكلام في هذه القضية في الأدب ووضع بعد ذلك جدولاً بأسماء من ألفوا كتباً أو أبحاثا مستقلة في الإعجاز ثم تكلم على كتاب الباقلاني منها بخاصة ويورد ما انفرد فيه والخطة العامة التي اتبعها في دراسة الموضوع ثم يذكر أسفه لضياع كتاب الشريف الرضي في الإعجاز وفرحه لبقاء بعض المقالات التي تؤدي صورة عن أقواله في الموضوع ويتكلم بعد ذلك على أثر فكرة الإعجاز في إيجاد علوم البلاغة وأن الناس انقسموا منذ البدء الى قسم يقول بإعجاز القرآن في بيانه وقسم ينكرونه ويضعون أسباباً أخرى للإعجاز الى جانب أنهم يرون القرآن بليغاً ، ثم يتكلم على المؤلفين في الإعجاز من أهل البيان كالجاحظ ، والجرجاني في كتابيه الدلائل والأسرار وشرحيه الأكبر والأصغر على كتاب الخطابي ، وفخر الدين الرازي ، وابن أبي إصبع القيرواني ، والزملكاني ، وحازم القرطاجنّي ـ وهو يذكر أسماء هؤلاء وأسماء كتبهم فقط ـ ثم يتكلم على أطوار مدلول كلمة إعجاز ثم يذكر أسماء المفسرين الذين تكلموا في الموضوع ثم يتكلم على الفكرة لدى علماء الكلام وأسماء من نعرف أنهم ألفوا فيها منهم .

ويتحدث بعد ذلك عن كلمة الإعجاز ونشوئها من لفظة عجز وأطوار الفكرة ثم عن حجج المتكلمين في إثبات إعجاز القرآن ثم عن رأي النظام في الإعجاز ثم الجاحظ ثم ابن ربن الطبري ثم الرماني ثم القمي ثم الخطابي ثم الباقلاني ثم يتكلم على تكامل علم الكلام في نهاية القرن الرابع وعلى اتكال المتأخرين على المتقدمين ثم على رأي الشريف المرتضى وبهذه المناسبة يذكر أن الصرفة لدى المتكلمين الشيعة أكثر منها لدى المتكلمين من أهل السنة لأنهم أكثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ارتباطاً بالمعتزلة ثم يذكر ان عمل المتأخرين من المتكلمين كالقاضي عياض والآمدي والشهرستاني هو مجرد شرح وإنضاج لأدلة المتقدمين ثم يتحدث عن الراغب الأصفهاني وابن حزم .

ثم يتحدث عن المنكرين لفكرة إعجاز القرآن وعن الذين عارضوه كالنضر ابن الحارث ومسيلمة وابن المقفع وأصحابه وأبي الطيب المتنبي وقابوس بن وشمكير وأبي العلاء ويذكر سبب اتهامهم بالمعارضة وأثر الخيال الشعبي في اتهامهم ولم توسع خياله في هذا الاتهام ويتكلم على اتهام القاسم بن إبراهيم الرازي وغيره ابن المقفع ويدفع عنه تهمة القاسم هذا وينتقل بعد ذلك إلى ظهور فتنة خلق القرآن زمن المأمون وأثرها في منافشة هذه القضية ثم على مراسلة بين مسلم يدعو الى الإسلام ويؤيد دعوته بإعجاز القرآن ومسيحي يرد عليه وينكر هذه الفكرة ثم على ابن الراوندي وطعنه على القرآن والإسلام ثم على رد علماء الكلام على من انتقدوا القرآن ويذكر تأليف كتاب وافٍ في الدفاع عن الإسلام لأبي الحسن عبد الجبار الهمذاني الأسعد آبادي (٤١٥) واسمه « تنزيه القرآن عن المطاعن » ويختم مقالته بقوله : « ومن المفيد جداً لدارس تاريخ الإسلام الديني وتاريخ اللغة العربية الأدبي أن تجمع هذه الانتقادات كلها مع الردود عليها وأن تنظم تنظيماً علمياً » وبأنه ربما بحث هذا الموضوع على انفراد .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net